Ethical Pragmatism
Critique of John Dewey's Approach

Dr. Batoul Youssef Al-Khansa[1]

Abstract:

This research demonstrates how American modernity, since the Declaration of Independence from Britain, sought to compensate for its lack of a civilizational heritage, in contrast to other societies. It adopted scientific rationalism and intellectual superiority as measures for the development of its people, as well as a symbol of their rise. Furthermore, it insisted on the adoption of pragmatic utilitarianism, sometimes influenced by British utilitarian philosophy, and at other times in its distorted form, as its proponents preferred to call it. The American philosopher John Dewey proposed a reformist pragmatism, rejecting foreign elements like individualism and narrow utilitarianism, as well as the idea that "the ends justify the means." Dewey aimed to present a pragmatism that differed from its predecessors in the breadth of its utilitarian values and its narrow framework, seeking to expand its scope to include society as a whole, viewing it as a progressive value striving for the common good. He placed democracy above all else, fearing the rise of fascism and Stalinism, which were re-emerging in Europe on the eve of the World Wars. It also reveals how these reforms failed to withstand the ambitions of successive U.S. administrations. Moreover, Dewey's pragmatism contained inherent limitations and contradictions from its inception. Over the following decades, utilitarian values became increasingly dominant, with contemporary American thinkers acknowledging a deep chasm between the power of the United States and the legitimate demands of its citizens for basic human rights.

Keywords:

Value-Based Utilitarianism, American Modernity, Pragmatism, Scientific Rationalism, John Dewey, Democracy.

1 - Lebanese researcher, PhD in Western Philosophy from the Lebanese University, Director of "Nama" Center for Intellectual and Leadership Creativity.

البراغماتية الخُلُقيَّة -نقد مقاربة (جون ديوي)-

د. بتول يوسف الخنساء[٢]

ملخّص

يبيّن هذا البحث كيف أنّ الحداثة الأميركية، ومنذ إعلان استقلالها عن بريطانية، أرادت أن تجبر النقص في افتقارها للإرث الحضاري، على خلاف ما تتمتّع به باقي المجتمعات. فاتخذت من النزعة العلمية والذكاء العالي مقياسًا لتطوير شعبها، وعلامة على نهوضه. وكيف أنّها أصرّت اعتماد البراغماتية النفعية، تارة تأثّرًا بمذهب النفعية البريطاني، وتارة بصورتها المشوّهة، كما أحبّ مريدوها أنْ يطلقوا عليها. وقد قدم الفيلسوف الأميركي (جون ديوي-John Dewey) براغماتية إصلاحية، نافيًا ما هو دخيل عليها، كقِيَم الفردانية والنفعية الضيقة، والغاية تبرّر الوسيلة، محاولاً أن يقدّم براغماتية تختلف عن سابقاتها في وسع دائرة النفعية القِيَمية وضيق أطرها، لتشمل المجتمع باعتبارها قِيمة تقدّمية تسعى للخير العام. وقدّم الديمقراطية على كلّ ما عداها، خشية صعود الفاشية والستالينية، التي كانت تطلّ برأسها في أوروبا قُبَيل الحربين العالميتين.

ويكشف البحث كيف أن هذه الإصلاحات لم تستطع الصمود أمام ما تطمح له الإدارة الأميركية المتعاقبة، فضلاً عن أنّ برغماتية (ديوي) تحمل بذور قصورها وتناقضها منذ النشأة. بل تعاظمت القِيَم النفعية الأحادية على امتداد العقود اللاحقة، مع إقرار مُفكّري المجتمع الأميركي المعاصر، بوجود هُوّة سحيقة بين سلطة الولايات المتحدة، وبين مواطنيها ومطالبهم المُحقّة للإنسان الأميركي.

الكلمات المفتاحية: النفعية القيمية، الحداثة الأميركية، البراغماتية، النزعة العلمية، (جون ديوي)، الديمقراطية.

١ - باحثة لبنانية، دكتوراه في الفلسفة الغربية من الجامعة اللبنانية، مديرة مركز نما للابداع الفكري والقيادي.

مقدّمة:

استناداً إلى التفاوت في الاقتدار التقني بين دول العالم، وبناءً على مقاصد النظام العالمي الذي يحكمه السياق الأميركي المعاصر، الذي تميّز بالتطوّر التكنولوجي، والرأسمالية المتقدّمة، والفردانية بمنافعها الأحادية، جرى تكريس الفوارق القوية بين الدول والمجتمعات على اختلاف مستوياتها. واتُخذ من علمنة المعرفة الحديثة أساسًا، ومن عَوْلَمة المعلومة طريقًا ملكيًّا وأداة لهذا التكريس، وبسط هيمنة القِيمة النفعية على مختلف الثقافات الأخرى؛ المتطوّرة منها، كالثقافة الأوروبية من جهة، والثقافات المتأخّرة التي مازالت في مراحلها السلبية من التبعية والتأثير من جهة أخرى.

وفي إطار ما يفرضه النظام العالمي الحاكم بالإملاء والقوة، يقع الصراع القِيَمي الحقيقي بين المجتمعات. وأخطر أوجه هذا الصراع ما يطرح تحت عنوان تعديلات أُممية على النظم التربوية والتعليمية، والتي تنزلق فيه الجامعات والمدارس، وما يرتبط بها من مؤسّسات نحو القِيَم التي تحقّق -على طول مسارها المرسوم لها- قِيَمًا وقواعدَ للمبادلات التجارية التي أرساها النظام العالمي المتسيّد بهُويّته الأميركية المُعَولَمة. وشعارها أنّ القِيمة الوحيدة الجديرة بالبقاء من بين القِيَم الثقافية والمجتمعية في أرجاء المعمورة كافّة هي القِيمة التي تحمل الأخلاق التجارية المحضة، عبر تسليع القِيَم. وسبيلهم الوحيد في الوصول إلى هذه النتيجة، هو تنازل كل ثقافة عن قِيَمها، والتسليم للأقوى الذي يجسّدونه. فما هي فلسفة هذه النفعية القِيَمية؟ ومن أين هي منابعها ومشاربها الفكرية والاجتماعية على مجتمع المهاجرين في أميركا الحديثة؟

أولًا: النفعية القِيَمية وجذورها في الحداثة الأميركية:

١ - الافتقار للموروث الفكري:

إنّ افتقـار الفكر الأميركي للجـذور التاريخية الموروثة، على أنواعها، سـواء أكانت دينية أم ثقافية، علمية أم أدبية، استدعى من الفلاسفة الأميركيين السعي إلى إيجاد مقياس مختلف، يُصاغ بوصفه مخرجًا لهذا الافتقار السـحيق للأصول الموروثـة، التي تتباهى بها الحضارات العريقة؛ الشرقيـة منها والغربية، على تنوّعهـا وتضادّها، وتفتقر إليها الولايـات المتحدة الأميركية. فهي التي أطلقت على نفسـها لقـب العالم الجديد رغم قيامه على اغتصاب الأرض وإبادة شـعبها. فقد اجتذب المهاجرين من بلاد شـتّى، إما هربًا من اضطهـاد، أو طمعًا في الغنى والثروة. وقد أخذت بنظر الاعتبار في صناعة المخرج لهذا الافتقار، كلّ التراكمات الثقافية منذ إنشـائها، كما جرى استقراء الميول الفكرية والثقافية كلّها التي سبقت ظهور الفلسفة البراغماتية، التي طبعت الفكـر الأميركي. فتمكّنوا بذلك من اختيار الأصلح، وترك ما لا يصلح. يقول المؤرّخ للفلسـفة الأميركية (هاربرت شنديار-Herbert Schneider): "إنّ المعيار الذي جرى اعتماده لبناء فلسفة أميركية خالصة، هو: درجة الذكاء التي يصل الذهن المشترك إليها، بحيث تكون له السيادة على الثروة والقوّة الوحشية. وبعبارة أخرى، أصبح مقياس تقدّم الحضارة، هو تقدّم الشعب."[١] وبهذا الحلّ المتقدّم، تجاوز المجتمع الأميركي ما يفتقر إليه من الإرث الحضاري والقِيَمي بصفته كيانًا موحَّدًا. بل تبنّت الولايات المتحدة على أثر ذلك، فلسفة جديدة تفسّر العالم بوصفه حيويًّا دائمَ الحركة، قام بوضعهـا وتطويرها كبار الأعلام البراغماتيين الأميركيين، من قبيل (شـارلز بيرس- Charles. S. Peirce) و(وليام جيمس- William James) و(جون ديوي). واستطاعت أن توفّق بين العقلية الهيغلية الصعبة المراس، التي كانت سـائدة في الساحة الفكرية، وبين العقلية الليّنة العريكة"[٢]، والتي تنسجم مع تعاليم الإنجيل. لكنّها تسعى إلى الغاية أو النتيجة من جرّاء اعتقادنا بفكرة ما، ولا قِيمة لأيّ فكرة، ما دامت لا تقدّم لنا فائدة ملموسة في حياتنا العملية.

---

1 - Herbert Schneider: A History Of American Philosophy, p125.

٢ - تشارلز موريس: رواد الفلسفة الاميركية، ص٢٥.

لقد كان العمل الإنساني لدى البراغماتيين هو موضوع اهتمام رئيس، لكنّه ارتكز على جانب واحد من السلوك الإنساني: العمل الذكي، والعمل الهادف، أو السلوك الذي يبحث عن هدف ما، يتأثّر بالفكر. فالإنسان الذي يتصرّف بذكاء، سيصبح محورَ اهتمام البراغماتيين، وهذا بالتأكيد يتّسق بوضوح مع التطوّر التاريخي للبراغماتية. وقد رحّب المنهج العلمي، بطبيعة الحال، بهذا النشاط وتوجُّه مستقبل إنسان أميركا باستخدام الذكاء الإنساني بأعلى مستوياته.

٢ - النزعة العلمية:

بعد طباعة كتاب أصل الأنواع لـ (داروين-Darwin) عام ١٨٥٩، أخذت هذه النظرية مكانتها على الساحة الفكرية الأميركية، باعتبارها ردّة فعل على الحركات الدينية والمثالية، التي كانت سائدة في المجتمع الأميركي. فقد عزّزت النزعة العلمية -عند الأميركيين- انتشار هذه النظرية التي فسّرت الكون بأنّه حلقة من حلقات التطوّر، لا يختلف عن سائر الحلقات إلا في ترتيب ظهوره. فنشأ على أثر ذلك صراع فكري، بين من يتبنّى مبادئ نظرية التطوّر من جهة، وبين الميول الأخرى، كالدينية والرومانسية والمثالية والتجريبية من جهة أخرى. لكن الفلاسفة الأميركيين المتأثّرين بنظرية التطوّر وبالداروينية بالتحديد، واجهوا هذا الصراع الذي يعتبر طبيعيًّا نظرًا للتنوّع الذي يتميّز فيه الفكر الأميركي المختلف الاتجاهات، من مهاجرين متديّنين، ومن قيادات عُليا، وجدت في هذه النظرية أملاً في منافسة الإرث الحضاري، التي قامت عليه الحضارات الأخرى.

ساعد هذا التوجّه العلمي لدى السلطات في الولايات المتحدة الأميركية في أوائل القرن العشرين إلى قبول البيولوجيا التطوّرية وتبنّيها، وتفضيلها على غيرها من النظريات العلمية. فلقد وافق البراغماتيون الكبار على النظرية القائلة إنّ الإنسان انحدر بصفته نوعًا من الكائنات الحية على الأقل خلال عملية تطوّرية. وقد جاء هذا التفسير التطوّري عن وجود الإنسان متّسقًا مع الحرية الإنسانية والمسؤولية الخُلُقية. وكانت البراغماتية -بلا شكّ- فلسفة ما بعد داروينية، وكانت النزعة التجريبية التي اتّسمت بها هذه الفلسفة نزعة بيولوجية. لذا، نشأ عن قبول البيولوجيا التطوّرية مشكلة مُهمّة، وهي مرجعية الأخلاق والذات الإنسانية. فعادت المثالية تطلّ برأسها، لتوكيد الروح الإلهية والإنسانية معًا. وذلك لاعتراض الجماعات المتديّنة على مبدأ (داروين)، مثَّلَ هذه الجماعات

قامات دينية وفلسـفية، نذكر منها الفيلسوف (جوزيا روس- Josiah Royce) الذي لم يكن يرى أيّ تناقض بين أنْ يكون الأفراد أجزاء من مطلق، وأن يكونوا قائمين إلى الأبد بفرديتهم المتميّزة."[١]

فالأخلاق الاجتماعية العليا هي أنْ يتصرف الإنسان بحيث تتسق إرادات الأعضاء جميعًا في تيـار واحد ينتهي إلى هـدف، وهذه بعينها هي الأخلاق الإلهية؛ إذ يتسـق الله بين أجزاء الكون كلّهـا على نحو يجعل كل ما فيه متعاونًا عل تحقيق هدف واحد. "ولا تكتمل الحياة الخُلُقية إلا بالبصيرة الخُلُقية التي تختلف عند الناس قوّة وضعفًا، فإذا ما بلغت درجة الكمال في نفاذها وقوّة إدراكها كانت هي البصيرة الخُلُقية التي يتصف بها الله، والتي بواسطتها تتسق مختلف الإرادات في العالم كلّه دفعة واحدة، ليكون منه عالم ذو هدف واحد."[٢]

فالنظـرة الاجتماعية للأخلاق كانت تـدور نحو دور الأخلاق المجتمعيـة في تحقيق صالح المجتمـع، باعتباره هدفًا إلهيًّا نهائيًّا. لكن هذه النظـرة المثالية والجامعة للمجتمع مع ما تملكه من بيئة حاضنة، أخذت تفقد تأثيرهـا في بلد هيّئته الظروف للعمل في عالم جديد واعد بالثروة والرفاه، ويتنامى فيه الإنتاج العلمي. فكانت الغلبة مرّة أخرى للعلوم ومبادئ التجارب العلمية، فأصبحت الفلسفة في أميركا شارحة للعلم بعد أن كانت مؤيّدة للدين. وأصبح المعمل ونتائجه ميدان الفكر والعلومـ بل ميدان المجتمع بأكمله. لذا، يقول (شـارلز بيرس) وهو من أهم اعلام الفلسـفة البراغماتية (١٨٣٩-١٩١٤) «إن الفكر في عصرنـا العلمي العملي لم يعد بحاجة إلى السـكون والتأمل اللذين كانا يُسـتعان بهما في ما مـضى، بل أصبحت حياتـه مرتبطة بتجارب المعامل التي تقام في وضح النهار.»[٣]

ثانيًا: البراغماتية الأمريكية – من المنفعة إلى التجريب

فحقيقة أن الفلسـفة تقوم على فاعلية الإنسـان واتسـامه بالذكاء، أصبحت في مقدّمة اهتمام

1 - Josiah Royce: World and the Individual, pp 2445-.

٢ - حياة الفكر في العالم الجديد، ص ٩٦.

3 - Charles. S. Peirce: Collected Papers, p 420.

الفلاسفة الأميركيين. وعليه، أصبح هذا الفاعل بحاجة إلى معرفة نفسه وفهمها فهمًا شاملاً. لذا، قام عمل البراغماتيين لتحقيق هذا الفهم على تصوّر خاص للقِيَم المجتمعية، انطلاقًا من تصور فريد للفلسفة، قدّمه أكبر أعلام الفلسفة البراغماتية ومؤسّسيها، وهم (تشارلز بيرس) و(وليام جيمس) و(جون ديوي). ويقوم على انعكاس الثقافة الاجتماعية الأميركية فيها، والتي تعتبر أن العمل وما ينتجه هو الأساس، وليست الطبقية المخملية، كما في أوروبا وفرنسا على وجه التحديد. فالعمل هو المقياس الذي يُعلي من شأن الفرد الأميركي ويُهبطه.

وجدير بالذكر أنّ بعض المناصرين للنظرية التطورية لـ (داروين) كانوا متأثّرين أيضًا بالمذهب النفعي السلوكي، الذي تأسّس على أيدي (جيرمي بنثام-Jeremy Bentham) ١٧٤٨-١٨٣٢ ومن بعده (جون ستيوارت ميل-John Stuart Mill) ١٨٠٦-١٨٧٣، على خلاف البراغماتية الأميركية الخاصة بـ (بيرس) و(جيمس) و(ديوي) التي جعلت النظر إلى النتائج مبدًا شاملاً لميادين الفكر جميعًا. واتفق أعلام البراغماتية الأميركية على فكرة (تشارلز بيرس) بأن الذي يجعل الفكرة ذات معنى هي نتائجها العملية التي تترتب على الفكرة في خبراتنا. وتمايز (جيمس) عن البقية بأن جملة "الله موجود" ذات معنى، وهي تثبت عن طريق غير مباشر أو غير تجريبي حسّي. وهي النتائج العامة التي تحدث من وجهة نظر المؤمن بصدقها. أما الحقّ، فهو ما كان الاعتقاد فيه أفضل من إنكاره. الصدق هو ما ينجح من حيث الثمرة العملية التي يثمرها العمل بمقتضاه. يقول (جيمس) في كتابه البراغماتية "إن الحقّ أو الصدق لا يكون في الجملة قبل النزول بها إلى معترك الحياة والعمل، بل هو يطرأ عليها عندئذ، فتصبح حقًّا أو صدقًا حين ألمس أثرها الناجح في ميدان السلوك، فالحوادث العملية وحدها هي التي تجعلها صادقة أو باطلة."[1] فتأكيده على من يجعل الفعل فضيلة هو أنه فعل ناجح والعكس صحيح. هذا التشبيه للقِيَم الخُلُقية بالسلعة الاستهلاكية سبّب له هجومًا وانتقادًا لاذعًا من أنصار البراغماتية المتديّنين؛ لأنّه يتفق مع المذهب النفعي لـ (ستيوارت).

1 - William James: Pragmatism, p 201.

ثالثًا: القِيمة النفعية في براغماتية (ديوي):

يعدّ (جون ديوي) (١٨٥٩-١٩٥٢) من أهمّ الفلاسفة البراغماتيين الأميركيين، الأكثر تأثيرًا في القرن العشرين دون منازع، والذي حاول أن يجعل الفلسفة تجربة حياتية تهدف إلى بناء قِيَم اجتماعية متطوّرة وديمقراطية حقيقية، تُمارس في الواقع اليومي، وتعكس رؤيته في النفعية القِيَمية الخاصّة التي تعتبر القِيَم نتائج تجريبية مستمرّة، وليست ثابتة.[١] وقد أطلق على براغماتيّته مصطلح الأداتية (Instrumentalism)، إشارة إلى أنّ القِيَم أدوات وليست مطلقة.

وقد تركّزت فلسفة (ديوي) على المبادئ الآتية:

- التجربة الإنسانية أساس القِيَم.
- ليست القِيَم مطلقة، بل تقاس بمدى نجاحها في تحقيق تنمية الإنسان وخدمة المجتمع.
- يجب أن تخضع القِيَم للمراجعة المستمرّة، فهي نتاج تجربة اجتماعية مستمرة ومفتوحة.
- الديمقراطية أسلوب حياة، يشمل المشاركة الجماعية والنقد والتجريب.
- الخير هو ما يعزّز "النموّ والتعلّم والتجربة الإنسانية".

لهذا السبب ركّز (ديوي) من الجانب الإنساني على المناهج التعليمية، وأرسى قِيَم تربوية تقوم على التجربة التعليمية، التي تنمّي الإنسان الطفل فكريًّا واجتماعيًّا، ولا تقوم على عملية الجذب السريع والمؤقت فقط. فالقِيمة التربوية تعود بالمنفعة على مجتمع بأكمله، وللتعليم دور محوري في إنتاج مواطنين قادرين على المشاركة الفاعلة وليسوا أدوات تقنية[٢]. أما الجانب السياسي فقد طرح (ديوي) مفهوم الديمقراطية، بوصفها تجربة وقِيمة أميركية مجتمعية كبرى، يجد فيها أسلوب حياة لا يخضع لأي محكمة استئناف أعلى من الإجماع الديمقراطي، والمشاركة الجماعية، التي

1 - Democracy and Education, pp327330-.

2 - John Dewey: The Public and Its Problems, pp110114-.

تقوم على التجريب الذي يفضي إلى التصويب.[١] من هنا، اتّسم (ديوي) بحبّه للعمل الجماعي. وهو القائل بأهمّية الروح الاجتماعية، التي تحمل روح الإصلاح، وتؤدّي السلوك الأمثل للمجتمع الديمقراطي، من خلال التعاون المجتمعي، كتعاون العلماء في المصنع والمعمل.

بعد وضعه للمناهج التربوية في أميركا، والاستعانة به من قِبَل تركيا أتاتورك، والصين، وروسيا، أصبح (ديوي) مصدرَ إلهامٍ على الساحة الفكرية والتربوية الأميركية. ولقوّة تأثير فكره، صار يستشهد به من قبل الفلاسفة والمفكّرين الأميركيين، لدرجة أنّ كلّ مفكّر يريد ضمان المصداقية لمواقفه وآرائه لدى عموم الأميركيين، أخذ يستشهد بنصوص (ديوي) فيما أصاب، وفيما لم يصب. فما تركه (ديوي) من إرث فكري تربوي إصلاحي وديمقراطي فاعل على الساحة الفكرية الأميركية، لم يكن بالقليل أبدًا. يتجلّى ذلك في نظرته الشاملة للمجتمع الأميركي، وضرورة تجديد فلسفة أميركية تتلاءم مع حصول التغييرات المتتالية فيه، محاولاً بذلك تعميق هذا التوجّه في الثقافة الأميركية، ليفتح من خلالها النقاشات العميقة مع مختلف الأطراف الفاعلة في المجتمع، من مثقّفين، وتربويين، ومفكّرين، وعلماء، وسياسيين.

ولا يعني ذلك أنّ (ديوي) قد خرج عن مبادئ البراغماتية العامّة، بل اختلفت فلسفته في وسع دائرة النفعية القِيَمية وضيق إطارها. فمثلاً يوسّع (ديوي) إطار النفعيّة لتشمل المجتمع بوصفها قِيمة تقدّمية، تسعى للخير العام. على عكس نفعية (بيرس) و(جيمس)، التي تقتصر على الرفاه الفرداني. لذلك، أسّس (ديوي) لمفاهيم الخير والجمال المرتبطين بالبيئة التي يعيش فيها الإنسان العادي، وليس النخبوي، كما في أوروبا، وخاصّة فرنسا. والمعايير التي تحكم المجتمع، هي معايير البيئة. وبالتالي، علينا أنْ نذهب إلى البسطاء من الناس وليس النخب. فالمَهَمَّة هي التجريب الفعلي وليس التنظير. وما يجده أنّه صالحًا فهو المعيار الذي يفترض اعتماده. «من الواقعية إلى البراغماتية، انتقال من أمس إلى الغد، وهو الانتقال من الفلسفة التقليدية، أكانت واقعية أم مثالية، إلى الفلسفة البراغماتية».[٢]

---

١ - جون ديوي: التجديد في الفلسفة، ص ٨٧-٨٨.

٢ - زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، ص ١٣٧.

رابعًا: الديمقراطية مقابل الفاشية والستالينية:

ينـزل (ديوي) الفلاسـفة من منزلة النظر إلى منزلـة العمل، بعد ان كان العمـل لعوام الناس، والنشاط الفكري مرتبطًا بالفراغ، وخارج دائرة العبيد والخدم. كما أنّه اتخذ من الرئيس (جيفرسون- Thomas Jefferson) نموذجه المثالي في التنوير، والحرية، والديمقراطية، وحق الفرد الإنساني. فهو من أهمّ الآباء المؤسّسين للولايات المتحدة الأميركية، والكاتب الرئيس لإعلان الاستقلال، شارك في النضال من أجل استقلال أميركا من الإنكليز، وقدّم آراء فلسفية سياسية أدّت إلى تراجع المدّ الديني، أهمّها اعتباره العقل المرجع الوحيد للفرد. فأهمّية (جيفرسون) في حياة أميركا، كما يقدّر (ديوي)، ليس لكونه عضوًا في الكونغرس، أو سـفيراً في فرنسـا، او سكرتيرَ دولةٍ، أو نائبًا للرئيس ثمّ الرئيس الثالث للولايات المتحدة (١٨٠٠-١٨٠٨)، بل أهمّيته تكمن في تعبير أفكاره عـن الروح الأميركية... لقد عرف كيف يمنح أميركا مؤسّسـات ديمقراطية تسـتجيب لتطلّعات الشـعب، وأن الحياة الأُخرى، والثواب والعقاب لا يمكـن أن تتحدّد بالعقل؛ لأنّ ذلك انتقاصًا للكمال الإلهي.[1] ومن يعرف (ديوي)، لا يمكن أنْ يجد غرابة في وصف فلسفته كلّها بأنّها عبارة عن ممارسة للديمقراطية. فبراغماتيّته هي أداتيّة نفعية لخدمة المجتمع.

ويبرّر (ديوي) رجوعه لـ (جيفرسـون)، ليس لأنّه أميركي، بل لأنّه يناقش مسـألة الديمقراطية والحقـوق في أميركا، ويرجعهـا إلى مبدأ خُلُقي، وأنّها تجربة تاريخيـة حدثت في زمان ومكان معيّنين، تنجح بنسبة، وتفشل بنسب أخرى. أي إنّ الديمقراطية هي خبرة تنتظر نموّها واكتمالها، كأيّ خبرة.

كـما أنّه يجدر بنا ذكر السـبب الرئيس الـذي جعل (ديوي) يركّز عـلى الديمقراطية باعتبارها قِيمة مجتمعية يتمتّع بها المجتمع الأميركي، وهو خوفه من صعود الفاشـية والستالينية، ورؤيته لهـذه الإرهاصات في أوروبا نهاية الثلاثينات من القـرن الماضي. لذلك، دعا (ديوي) إلى روح ديمقراطية خُلُقية وجدها أسلوبَ حياةٍ، يشمل المشاركة الجماعيّة، والنقد والتجريب بما يفضي إلى التصويب.

---

١ - جيرار ديلودال: الفلسفة الاميركية، ص٥٦-٥٧.

مـن هنا، نفهم كل المعنى الذي أُعطي للقِيَم المجتمعية الأخرى، كالتعليم عبر الممارسـة والتجريـب، وما له من دور محـوري في إنتاج مواطنين فاعلين، وليسـوا تقنيّـين. فنحن نفهم براغماتيـة (ديـوي) الأداتية عندما نفهم كيف يمكن أنْ نمارس قِيَم المجتمع، وكيف نفشـل في تحقيـق هذه القِيَم حين نفقد الروح الديمقراطية، التي يعتبرها وسـيلة لتنظيم حياة مشـتركة بين المواطنين.

خامسًا: البراغماتية المشوّهة:

١ - نقد (ديوي) لشعار «الغاية تبرر الوسيلة»

انتقد (جون ديوي) قواعد نُسـبت إلى البراغماتية مع مراحل تطوّرها في بيئات غير فلسـفية، وخاصّة حين دخلت عالم الأعمال، والسياسة، كقاعدة "الغاية تبرّر الوسيلة"، التي تعود بالأصل للمفكّر الإيطالي (نيكولـو مكيافيـلي-Niccolò Machiavelli) (١٥٢٧-١٤٦٩)، وقد ظهرت بشـكل غير مباشر في كتابه الشـهير (الأمير)؛ حيث ناقش كيف يمكن للحاكم أنْ يسـتخدم أيّ وسـيلة للحفاظ على سلطته، وتحقيق الاسـتقرار وإنْ استدعى ذلك اسـتعمال وسائل الخداع والقـوّة. فلا يمكن تحقيق غايات نبيلة بوسـائل غير خُلُقية من وجهة نظـر (جون ديوي)؛ إذ إنّ الوسائل جزء من الغايات. صحيح أنّ (ديوي) لم يعتقد بالقِيمة المطلقة، لكنّه يقيس القِيَم بمدى نجاحها في تحقيق تنمية الإنسان وخدمة المجتمع. وعبارة "القِيمة النفعية" عند (ديوي) لا تدعو إلى الانتهازية، كما عند (مكيافيللي)؛ لأنّ براغماتيته كما أسـماها أداتية لفهم الحقيقة، وليست قاعدة للسلوك النفعي.

٢ - موقفه من الفردانية والنفعية المغلقة

وما ميّز (ديوي) عن أقرانه السابقين أعلام البراغماتية ليس فقط رفضه لمبدأ الغاية تبرّر الوسيلة، بل إنّه رفض النفعيـة القِيَمية، بمعناها الفردي، وبتصوّرها القائم عـلى النفعية، فاتُهم على إثرها بمعاداة الفردانية، مضافًا إلى رفضه القومية والعنصرية. فقد جسّدت فلسفته، كما وجدها كثيرون من المراقبين فلسـفة إنسـانية، حتى صار يطلق على (ديوي) في أميركا صفة الفيلسوف البطل،

والأستاذ الكبير. فهل نجحت هذه القِيَم الحداثية العلمانية في الصمود بعد مرور عشرات العقود على براغماتية (ديوي)؟

أحدثت براغماتية (ديوي) تحوّلاً في السياق المجتمعي والتربوي والسياسي لأميركا، ما استدعى رؤساء دول صاعدة أنْ تطلب المساعدة في وضع مناهجها التربوية والاستفادة من ديمقراطية (ديوي) العملية، كتركيا أتاتورك، وروسيا والصين، فأزعج انتشارها تيّارات عدّة متشدّدة ويمينية في أميركا؛ التي رأت في فلسفة (ديوي) خطرًا يهدّد مصالحها، وأهدافها الاستعمارية كلّها، فبدأ بعضهم بحملة تشويه، وبدأ آخرون بحرب ناعمة ومباشرة.

يرجع بعض المؤرّخين إلى أنّ الحرب على البراغماتية بصورتها الديوية، بدأ قبل الحرب العالمية الأولى. ويعتبر آخرون أن التشويه دخل على الحركة البراغماتية نتيجة شعبويتها، وذلك قبل نشوء الفاشية ودخول العالم عصر الذرة. ووجّهوا انتقادات لاذعة لـ (ديوي) بالقول: "كيف استطاع البراغماتيون قبول الحرب دون احتجاجات جدية، ودون تقديم مفتاح للحلّ؟

٣ - المكارثية وجه سياسي لتشويه البراغماتية

لكن هناك رأي لـ (جون ماكيمبر-John McCumber)، من أن الفلسفة البراغماتية، وبكل بساطة هي ضحية أخرى من ضحايا المكارثية. والمكارثية هي حركة سياسية ظهرت خلال فترة الخمسينات من القرن الماضي، سُمّيت على اسم السيناتور (جوزيف مكارثي- Joseph McCarthy). تميّزت هذه الحركة بحملة مكثّفة لمكافحة الشيوعية داخل الولايات المتحدة الأميركية؛ حيث اتّهم (ماكارثي) وأتباعه عددًا من الاشخاص، خاصّة في الحكومة والفنون ووسائل الاعلام، بأنّهم عملاء أو متعاطفون مع الشيوعية دون تقديم أدلّة واضحة. كانت النتائج سلبية جدًّا؛ حيث تسبّبت المكارثية بفرض أجواء من الخوف والريبة، وقيّدت الحُرّيّات المدنية، وتأثّر كثير من الناس بفقدان وظائفهم وسمعتهم بسبب اتهامات غير مثبتة. من هنا، يجد (ماكيمبر) أنّ البراغماتية أو أي فلسفة تتمتع بحُرّيتها هي الهدف الأول للتشويه من قِبَل اليمين المتطرّف في الولايات المتحدة الأميركية. وذلك جرّاء الصفة التي تتصف بها جماعة الفلسفة، وهي: حُرّية الرأي والتفكير، أكثر من أيّ نظام أكاديمي، فالفلسفة هي في طليعة من يجب مهاجمتها. "الفلسفة في الحقيقة، ممكن أنْ تكون هدفًا

أَولويًّا للهجوم من قِبَل من يدّعون بالجناح الأيمن. "كان القمع والتبعيّة هما العقيدة المركزية لفكر (مكارثي)، ما ولّد مواجهة الفلاسفة على نحو مطلق".[1] لهذه الأسباب وغيرها، ظهرت الوضعية المنطقية، والفلسفة التحليلية، كأنّها الشكل الوحيد للفلسفة التي يتّفق مع مثل هذا المناخ السياسي المتطرّف لعام ١٩٥٠؛ كونها فلسفات علمية بحتة بعيدة عن شؤون الناس.

سادسًا: إضعاف البراغماتية وتحريف القِيَم:

بعد خضوع السلطة لليمين المتشدّد، شَرَعَتْ جامعات أميركا بتغيير نوع التربية الفلسفية الواجب اتباعها، وإنْ أبقت على الاسم الرسمي لفلسفتها، وهي البراغماتية، لكنّها أفرغتها من أسسها الإصلاحية الديوية، وتركت أمرين أساسين، التزمت بهما كلّ الفلسفات الصاعدة التي تلتها. يتمثّل الأول بضرورة الحفاظ على صياغة لغة واضحة، وعلى القِيمة النفعية بإطارها الفردي، كما في المذهب النفعي، ويتمثّل الأمر الثاني برفضها للميتافيزيقا. وعليه، صارت كلّ فلسفة انكلوساكسونية معاصرة هي منتسبة، ولو من بعيد، إلى الفلسفة البراغماتية الرسمية للولايات المتحدة الأميركية، مهما أمعن في إفراغها من أهم مبادئها الديوية، وهي الديمقراطية الخُلُقية، والتضامن المجتمعي.

ومع كلّ الرضا التي نالته من سياسيي اليمين، لكن لم يكتب للفلسفات الصاعدة، كالتحليلية والوضعية المنطقية الاستمرار طويلاً لأسباب: أهمّها، بُعدها عن اهتمامات الفرد والجماعة، وعدم تقديمها شيئًا على الصعيد البشري. فلا جدوى منها لبعدها عن اهتمامات الناس. ما دفع إلى نشوء حركات ثقافية مختلفة الانتماءات شهدتها الولايات المتحدة الأميركية في الستينات من القرن الماضي ادت إلى تفكيك الاجماع الثقافي الأميركي الذي عمل عليه ديوي، وإلى تشتيت المحادثات في الحقوق المدنية الجماعية كقضايا العرقية والتعددية وحقوق المواطن الأميركي بشكل خاص. كل هذه الاحداث مجتمعة غيرت هوية الولايات المتحدة الثقافية عما كانت عليه قبل وفاة ديوي عام ١٩٥٢ تغييرا جذريا.

1 - John McComber: Time in the Ditch American Philosophy and the McCarthy Era.

سابعًا: صعود النفعية وفشل الحداثة الأميركية:

١ - محاولات ريتشارد رورتي لإحياء ديوي

في السبعينات من القرن الماضي ظهرت طبقة من الأكاديميّين الفلاسفة الأميركيين حاولوا إحياء فكر (ديوي) في الديمقراطية والتضامن المجتمعي من جديد، وعلى رأسهم مجدّد المذهب البرغماتي الفيلسوف الأميركي (ريتشارد رورتي-Richard Rorty)، آخذًا على عاتقه الشخصي إحياء قِيَم (ديوي)، وضرب كلّ القِيَم الثابتة التي أراد (ديوي) أنْ ينزلها منزل النشاط المجتمعي، مؤكّدًا أنّ "التحقيق أو الاستصقاء هو دومًا نشاط اجتماعي، سياقي ومشبع بالقِيَم.[1] وينظر إلى المعرفة ليست مرآة تعكس الواقع الجامد، بل أداة يستخدمها الإنسان للتعامل مع المشاكل داخل مجتمع تحقيقي. وفي الوقت نفسه يطالب (رورتي) اليسار الأميركي بعدم الاستسلام والرضوخ لليمين السياسي الذي سلّم البلاد إلى زمرة من أصحاب رؤوس الاموال، تتحكّم به ضمن مصالحها الضيقة. ويعملون على نشر أسوء قواعد العرض والطلب، ومصادرة اقتصاد البلاد، ففي كتابه تحقيق بلادنا ١٩٩١، وفي تتبع دقيق لتاريخ اليسار الأميركي يتنبّأ فيه (ريتشارد رورتي) عبر نظرية يطرحها لليسار الثقافي في الولايات المتحدة الأميركية، بأنْ شيئًا في النظام الحاكم لأميركا قد تصدّع، وفتح المجال أمام يمين شعبوي قائم على التجميع، وفق تعبيره. وقد تعاون اليسار مع اليمين على جعل القضايا الثقافية الترفية محورا للنقاش العام، عوضًا عن التوجّه إلى مناقشة مواضيع تحتاجها البلاد، وإلى اقتراحات قوانين جديدة ملحّة تخص الإصلاحات.

٢ - سقوط الديمقراطية في النفعية الفردية

فالبلد الذي كان يشهد ولادة جديدة للحرية تختلف عن سائر البلاد الأخرى صار يسير منذ السبعينات من القرن الماضي نحو التقسيم الطبقي مع فوارق عميقة مجتمعة من النوع الذي لا يمكن لـ(جيفرسون) ولا لـ(ديوي) أنْ يتصوّراه. ومما يساهم في تثبيت هذه الحقيقة، هو أنّ شرائح المجتمع والسياسيين بدءًا من الموقف من حرب فيتنام، إلى فضيحة واترغيت «Watergate»،

1 - Richard Rorty: Philosophy and the Mirror of Nature, p131.

وحرب العراق، والاحتجاجات ضدّها...كلّها أمور جعلت السياسيين أعداء في وعي الجماهير الأميركية وفي تفكيرها. وأفقدت الثقة بأميركا الليبرالية وأسقطت معها مفهوم الديمقراطية عند مثقّفيها، وقسم من مواطنيها إلى غير رجعة. فأميركا تقدّم نفسها وفق (رورتي)، وبصورة مرعبة، معظم الأوصاف التي ستكون عليها في القرن الواحد والعشرين، وستكون مكتوبة بتفاوت نسبيّ بين الازدراء والاشمئزاز الذاتي.[١] ونتيجة النفعية القِيَمية التي تبنّتها السياسة الرسمية للولايات المتحدة الأميركية، أصبح الافتخار الوطني يتجسّد بتأييد الفظائع، واستيراد العبيد، والأفارقة، وذبح الأميركيين الأصليين، واغتصاب الغابات القديمة، تحت عنوان الأمن القومي والمصلحة العُليا. وهكذا رؤية للافتخار الوطني تُفشل أيّ عمليّة اعتراض من قبل الشعب. ويكتفي المُعارض اليساري أنْ يكون متفرّجًا.[٢]

وكما أنّ (ديوي) هو ابن الحداثة الأميركية، كما جاء بكتاب ويستبروك ١٩٩١ «لكن هذه الحداثة لم تنجح في تجسيد مشروعه القِيَمي. فقد جرى تحويل البراغماتية من فلسفة تجربة اجتماعية إلى نفعية فردانية، تخدم المصالح الاقتصادية، في ظلّ مجتمع استهلاكي يفتقد المشاركة الحقيقية»[٣].

كذلك يعلّق (كورنل ويست-) في كتابه ١٩٨٩ "أنّ الديمقراطية اصبحت كذلك شكلاً مؤسّسيًّا فارغًا من الروح، والتعليم تقنيًّا بعيدًا عن الهدف التحرّري الذي حدّده (ديوي). إذن، هناك فجوة بين تصوّر (ديوي) البراغماتي وبين الواقع الأميركي، وهو ما يشكّل جزءًا من أزمة الحداثة التي تعاني منها هذه المجتمعات."[٤] لذلك، إنّ السببَ نفعيةُ (ديوي)، التي لم تجد صدى كاملاً أو ترجمة في الحداثة الأميركية التي اتّجهت نحو نفعية فردانية أُفرغت من الروح الديمقراطية الخُلُقية التي دعا إليها (ديوي)، ويشهد على ذلك التحوّلات الكبرى في الكتابات والرؤى عند مفكّريها

1 - Richard Rorty: Achieving Our Country, p15.

2 - Richard Rorty: Achieving Our Country, p14.

3 - Robert Westbrook: John Dowey And American Democracy, pp115- 119

4 - Cornel West: 1989, pp. 145- 1

من الجيل اللاحق، أمثال: (فرنسيس فوكوياما- Francis Fukuyama)، و(صموئيل هنتنغتون- Samuel Huntington)، و(آلان دونو- Alain Deneault)، وما تضمّنت كتاباتهم من تأكيد على فشل الحداثة الأميركية وقِيَمها التنويرية، ودخولها في أزمات لا تنتهي.

٣ - شهادات فكرية على فشل المشروع الخُلُقي الأمريكي

ففي كتابه «نهاية التاريخ» يطرح (فرنسيس فوكوياما) أنّ الديمقراطية الليبرالية تمثّل نهاية التطوّر الأيديولوجي. وهو ما يتعارض مع فهم (ديوي) للديمقراطية حين قدّمها على أنّها من القِيَم التي لا يمكن أنْ تغلق أو تُنهى، بل يجب أنْ تبقى في تطوّر مستمر من خلال التجربة المجتمعية؛ أي إنّها طرح قابل للنمو باستمرار، على عكس رؤية (فوكوياما) أنّها نهاية مطلقة ولا سبيل لتطويرها[١].

أما الصراع الثقافي الذي يفرد له المُفكّر الأميركي (صموئيل هنتنغتون) كتابًا تحت عنوان صراع الحضارات. ويرى فيه أنّ العالم مقسّم إلى حضارات متصارعة تتنازع بقِيَمها المختلفة، وأنّ الصراعات المستقبلية لن تكون بين الدول القومية، بل ستدور حول الهُويّات الحضارية والثقافية المختلفة، وأن الهُويّة الحضارية ستكون الأهمّ في تشكيل النظام العالمي بعد الحرب الباردة[٢]، فهو دليل آخر على أنّ الحداثة فشلت في تجسيد القِيَم البراغماتية التهذيبية كما يسمّيها (رورتي)، وتناقض نفعية (ديوي) المجتمعية التي ترى في الحوار والتفاعل بين الثقافات فرصة لإنتاج قِيَم مشتركة.

وفي عام ٢٠١٥ يصدّر الكاتب (آلان دونو) كتابه "نظام التفاهة" ليبرز فيه كيف أنّ المؤسّسات الحديثة أصبحت تعيش في ظلّ معايير الرداءة؛ حيث يجري تفريغ القِيَم من معانيها الحقيقية، وتصبح شعارات فارغة وشكلية. فثقافة التفاهة التي تُعلي من شأن السطحي على حساب القِيَم الحقيقية والعمق الفكري، سوف تؤدّي إلى سيطرة غير الأكفّاء على مفاصل السلطة والقرار في مختلف المجالات، كالتعليم والسياسة والاعلام. وترتكز هذه السيطرة على تسليع المعرفة،

1 - Francis Fukuyama: The End of History and The Last Man, pp. xi-xiii, 45 -47.

2 - Samuel Huntington: Clash of Civilizations, pp2043-40 ,23-.

واســتعباد الناس، واستلاب عقولهم، ما يجعله نظامًا متكاملاً يكرّس الجمود الفكري والتراجع الخُلُقي والاجتماعي عبر الاستعباد الرقمي[١].

خاتمة

إنّ النفعيــة القِيَمية البراغماتية بكلّ أطوارهــا، مرورًا بإصلاحات ديوي، ووصولاً إلى من جاء بعده، ومن حاول إحياءها مرّة أخرى بنســخ معدّلة من إصلاحيّين تأثّروا بـ (ديوي)، لم تســتطع كلّها أن تقف في وجه المارد الخطيئة الذي وضعته البراغماتية بالأساس. لكنّ براغماتية (ديوي) تحمل بذور عجزها وتناقضها منذ النشــأة. فصحيح أن براغماتية (ديوي) أرادت إشراك الشرائح الفقيرة والشعبوية في مشروعها الخاص، كما أرادته أعلام البراغماتية الأوائل. وإنّ امتياز أميركا، ســواء في شــعارها «الذكاء العلمي» مقابل النقص في الموروث الحضاري أم في القِيمة النفعية بأوجهها كافّة، بدءًا من علمنة الســوق التي أطاحت بالطبقات الاجتماعية الأميركية قبل غيرها، والتي يقبع نتيجتها ملايين المشرّدين ممّن هم تحت خط الفقر، الذين يفترشون المقابر ليلاً، كما في واشنطن وكاليفورنيا ونيويورك، وكما أنّ فلسفة (ديوي) لم توفّر إطارًا خُلُقيًّا قويًّا لتخلّيها كلّيًّا عن النخبويّة في تمايز منها مقصود عن أوروبا. كلّ هذه الأســباب المتقدّمة تركت آثارها السلبية على التماســك الاجتماعي في الولايات المتحدة الأميركية، ما أدّى إلى حالة من الفراغ الروحي والخُلُقي على أثر النســبية التي تأخذها البراغماتية في الاعتبار، والتي تنسحب إلى نسبية مفرطة تجــاه كلّ القِيَم ومخيفة إلى حد الرعب، يغذّيها هيمنة الاقتصاد الرأســمالي المتوّحش والثقافة الاستهلاكية المفرطة.

فليس المُهمّ في النفعية القِيَمية النتيجة الظاهرية السريعة أو ما ينجح الآن هو الأهمّ. بل العبرة في التجربة الطويلة الأمــد، وجودة التغيير الذي يفضي إلى التصويب الدائم. فهذه الديمقراطية التي تدّعيها الولايات المتحدة والتي تجعلها تتحالف مع أنظمة ديكتاتورية مقابل حصولها على

١ - آلان دونو: نظام التفاهة.

قواعد عسكرية، أو الوصول إلى مصادر للطاقة، أو التعاون الاستخباراتي تحت عناوين محاربة الإرهاب وغيرها من العناوين، ليست من الديمقراطية بشيء. بل هي مستعدّة أنْ تتعاون مع نظام ينتهك حقوق الإنسان، بل تساعده وتمدّه بالمؤازرة على إبادة اصحاب الأرض، لأطماع غير مشروعة، وأسباب نفعية، ما يشكّل أثرًا حقيقيًّا على استقرار الأمن والسلام العالميّين. والنتيجة التي بدأت تتراءى الآن وفي المدى المنظور، هي حالة ازدياد كراهية الشعوب لها، وفقدان المصداقية الخُلُقية لنظامها، بل سيصبح الاستقرار التي تدّعيه هشًّا يُنبئ بصراعات قومية وإثنية وسياسية وعرقية في ولاياتها كافّة. ولم تستعمل مصطلح براغماتية بنظامها السياسي إلا باعتباره غطاءً رسميًّا إعلاميًّا لجماهيرها وللقرارات التي تتّخذها تحت شعار الأمر الواقع.

المصادر والمراجع:

أولا- اللغة العربية:

- تشارلز موريس: روّاد الفلسفة الأميركية، ترجمة ابراهيم ابراهيم، الاسكندرية، ١٩٩٦.
- زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٩٨٢.
- جـون ديوي: التجديد في الفلسـفة، ترجمة أمـين مرسي قنديل، مكتبـة الانجلو المصرية، ١٩٤٨.
- جيرار ديلودالن: الفلسفة الأميركية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩.
- ألان دونو: نظام التفاهة، ترجمة مشاعل الهاجري، دار سؤال للنشر، ٢٠٢٠.

ثانيًا- اللغة الاجنبية:

- Herbert W. Schneider: A History of American Philosophy, shanti Lal Jain, Delhi. 1946.
- Josiah Royce: World and The Individual, Peter Smith, University of California, 1979.
- Charles S Peirce: Collected Papers, Harvard University, Press 1932.
- James William: Pragmatism, Harvard Press, 1907.
- John Dewey: Democracy and Education, Myers Education Press, 1916.
- John Dewey: The Public and Its Problems, Holt Publishers, 1927.
- John McComber: Time in The Ditch American Philosophy and The McCarthy Era, Northwestern University Press. 2001.
- Richard Rorty: Philosophy and The Mirror of Nature, Princeton University Press, 1979.

- Richard Rorty: Achieving Our Country, Achieving Our Country, Harvard University Press. 1999.
- Robert Westbrook: John Dewey and American Democracy, Cornell University Press, 1991.
- Francis Fukuyama: The End of History and The Last Man, Penguin Books Limited, 1993.
- Samuel Huntington: Clash of Civilizations, Penguin Group, 1996.